دور أعمال المسح والتنقيب الآثاري
في كتابة تاريخ العراق القديم

الدكتور صباح جاسم الشكري

أخذت الدراسات الحديثة في حقل الآثار في العقود الأربعة الأخيرة من القرن المنصرم مجالاً جديداً رحباً، سد فراغاً كبيراً في المكتبة الآثارية من جهة، والنتاجات البحثية والانجازات البحثية من ناحية أخرى. انصبت تلك الدراسات على البقايا السطحية، وهي اللقى المنتشرة على سطوح التلول والمستوطنات التي قد يتألف الواحد منها من عدة مرتفعات أثرية ومنخسفات تمثل بقايا سواقٍ وأنهار مندرسة وخنادق مع أية توابع تظهر على السطح. يشمل المسح الآثاري محتويات الطبقات الاستيطانية داخل المواقع الأثرية. فالمسح الآثاري يعني دراسة المواد السطحية الظاهرة SURFACE MATERIAL)[١].

يضاف إليها دراسة المواد الموجودة تحت السطح، وهي في واقع الحال متممة للقى الأثرية السطحية (SUB-SURFACE MATERIAL)[٢].

جرت العادة بين الآثاريين المهنيين، ومنهم العراقيون تعريف أعمال المسح الآثاري بأنه دراسة محتويات سطوح التلول أو المستوطنات الأثرية التي يضم كلاً منها مجموعة تلول أثرية تختلف في سعتها والمسافات التي تفصل بينها. قد تتسع المساحة التي تشمل مسح سطح التلول والمستوطنات لتغطي مناطق وأقاليم حضارية واسعة تعطي مفهوماً شاملاً عن مناطق الدراسة التي قد تغطي معظم أراضي العراق ومحيطه العربي ودول الجوار وهذا لايتقاطع مع الدراسات التخصصية، مثلاً دراسة التاريخ السياسي المدون في النصوص المدون في النصوص القديمة لمدة تاريخية ما، في منطقة معينة. فالنصوص المكتشفة لم تساعد الباحث بشكل واضح وربما لم تتطرق أساساً لتاريخ الأحداث السياسية إجمالاً، لكن الباحث الآثاري يحاول الاستنتاج والتحليل المتأني. يشترك علماء الآثار وعلماء الانثروبولوجيا والجيولوجيون بشكل رئيس في دراسة جميع اللقى المكتشفة من دراسة المادة المكون منها الأثر، عضوية وغير عضوية– والخروج بدراسة حضارية– وتقنية.

إن المسح الآثاري لم يتحدد بدراسة اللقى السطحية المنتشرة في داخل المواقع المكتشفة في طيات الطبقات الاستيطانية وحتى الأرض البكر لتلك التلول والمستوطنات. هذا الإجراء ملازم لعملية المسح الآثاري السطحي ومتمماً له من الناحيتين التقنية والفنية.

التاريخ الحضاري ومردوداته:

نعني بالتاريخ الحضاري هنا، التاريخ غير المكتوب في الوثائق المدونة على الرقم الطينية وغيرها من المدونات التي تدخل في مجال الوثائق التي تعتمد التاريخية التي يتعامل معها الآثاري– المؤرخ. بل إن دراسة التاريخ من وجهة النظر الحضارية، تعني دراسة أصل المادة الأثرية من ناحية البناء العضوي والتقنيات التي تظهر عليها. والدور الحضاري الذي تؤديه أية قطعة أثرية معبرة تكتشف الكم الهائل للمواد الأثرية الأخرى. نذكر ذلك، كون المواد الحضارية تعني نشاطات الإنسان للتعبير عن احتياجاته الحياتية ونتاجاته الفكرية، وفيما يلي عرض سريع لمردودات التاريخ الحضاري:

١. الانتشار أو الانتقال الحضاري بين مستوطن وآخر ضمن منطقة جغرافية محددة أو بين منطقة وأخرى داخل القطر أو بينها مجتمعاً وبين تلول ومستوطنات معاصرة لها في مناطق أخرى تقع خارج البلاد، خصوصاً في مناطق الشرق الأدنى.
٢. دراسة مصادر العيش المتوفرة، وهي الماء والنبات والحيوان، ودراسة أساليب الإرواء وصلاحية تربة الأراضي الزراعية الكائنة عند ضفاف الأنهار والقنوات الإروائية أو عند مقترباتها.

٣. تخمين الحجم السكاني من خلال كثافة اللقى الأثرية المنتشرة فوق سطوحها أو تلك التي تكتشف في طبقاتها الاستيطانية.
٤. دراسة أسباب هجر المدن والمستوطنات واندثارها كالأسباب البيئية مثل ملوحة التربة أو تحول مجاري الأنهار[٣]، أو التحركات التكتونية تحت السطح في السهل الرسوبي[٤]، أو انتشار الأوبئة في مناطق معينة، أو بفعل الإنسان كالحروب مثلاً.
٥. التبادلات التجارية بين مواضع الاستيطان في منطقة جغرافية محددة ومناطق استيطان أخر معاصرة لها في داخل البلاد أو بينها جميعاً وبين مواقع أخر معاصرة لها تقع في البلدان المجاورة (التجارة في العصر الآشوري القديم)[٥].
٦. دراسة طبوغرافيات الأرض وأنماط الاستيطان عليها.
٧. دراسة الموارد الطبيعية المتوفرة وحجم استثمارها لدى سكان المستوطنات المستفيدة مباشرة أو القريبة منها.
٨. عملية المسح الآثاري تغطي رقعة جغرافية واسعة وبوقت قياسي وتكاليف أقل كثيراً منها في حالة إجراء التنقيبات الاثارية.
٩. تتطلب عملية المسح عدد محدد (١-٢) من الآثاريين المتخصصين، ومثلهم من الإداريين أو الخدميين، خلافاً لما تتطلبه أعمال التنقيب من عدد من المتخصصين في الآثار والمساعدين الفنيين والعمال الماهرين وغير الماهرين، مع أعداد من الإداريين والخدميين.
١٠. المسح الآثاري يعد مرحلة أولية لدراسة الآثار عموما (مواقع أثرية وأية مكتشفات) ندعوها مجتمعاً المواد الحضارية، فلا يمكن أن تتم عملية المسح والدراسة المعتمدة إلا على معرفة تامة بالآثار المكتشفة في أعمال التنقيب الآثاري، وهو المصدر الرئيس للمعلومات في أية دراسة آثارية علمية. بعبارة أخرى، فإن دراسة اللقى الأثرية المكتشفة وتقويمها ووضع تاريخ لها مبني أساساً على ما تظهره أعمال التنقيبات في الطبقات الاستيطانية التي تشكل محتوياتها – حين يتم الكشف عنها لأول مرة. إن الكشف الأول للمواد الأثرية يشير إلى حضارة جديدة، مثل حضارات حسونة وحلف وسامراء والعبيد وما تلاها، وان الموقع الأثري المكتشف سيحمل اسم تلك الحضارة ويبقى معياراً لمقارنة المكتشفات في المواقع الأخرى اينما يعثر عليها وهذا سياق علمي معروف لدى المتخصصين الآثاريين في العراق، وبناءً عليه فإن المواد الأثرية المعاصرة التي تظهر لاحقاً في طبقات الاستيطان المنتشرة على سطوح المواقع حيثما تكون ستتم دراستها وتقويمها وفق تاريخ ومميزات المواد التي تم الكشف عنها في أعمال التنقيب الأولى.

أهمية الاختصاص في المسح الآثاري:

إن أعمال المسح الآثاري ليست مجرد أعمال توثيقية لدراسة الماضي بمعزل عن الحاضر والمستقبل، بل إن نتائجه ذات أبعاد بحثية كبيرة وتبسط المهاد لدراسات شتى في مجالي العلوم الصرفة والعلوم الإنسانية على حدٍ سواء، ومن النقاط التي تؤكد أهمية هذا العمل الآثاري الميداني ندرج ما يأتي:

١. يتعين على المنقب الذي يبحث عن حلول لمشكلة علمية ما، مثلاً دراسة تخطيط المدن أو عمارة مباني تذكارية كالمعابد والقصور، أن يحدد موقعاً معيناً لاشتغاله تتوافر فيه الشروط الكافية لحل تلك المشكلة. وهو ما يمكن أن تقود إليه أعمال المسح الآثاري. وإذا كان لا بد من توضيح لهذه النقطة فانه ليس تداخل في العمل وإنما صلة وثيقة بين التنقيب والمسح الآثاري، فكما أن دراسة اللقى السطحية أثناء المسح تقوم على القرائن التي تم تاريخها عن طريق دراسة التعاقب الطبقي في المواقع المنقبة سابقا، فإن أية عملية تنقيب يزمع إجراؤها في موقع شمله المسح الآثاري يجب أن تعتمد على النتائج الأولية لذلك المسح من خلال الدراسة الممعنة للقى السطحية أو بالأحرى المواد

الحضارية المنتشرة على السطح أو البارزة فوقه كالمباني مثلا لغرض تحديد المواقع المؤهلة للتنقيب، وهذا ما سيوفر أفضل النتائج العلمية وبأقل التكاليف.

٢. يوفر المسح الآثاري الخلفية لإعداد الدراسات المتعلقة بالتخطيط الحضري، كنظام توزيع المستوطنات على الأرض واختلاف مساحاتها وعدد مرتفعاتها والمساحات التي تفصل بينها ونظام شبكات الارواء الممتدة بين مكوناتها، ونظام توزيع القرى الزراعية الصغيرة المعتمدة عليها اقتصادياً.

٣. إن نتائج مسوحات آثارية سبق أن أجريت في مناطق كثيرة في جنوبي العراق قد أظهرت حالات تأثرت فيها مراكز استيطان ومدن، ومعها شبكات إرواء وقرى زراعية بكوارث طبيعية كالفيضانات وملوحة التربة او تحول لمجاري الأنهار، إذ أدت مجتمعا إلى اندثارها، لذا فهي، أي أعمال المسح، تعطي مؤشرات لحقيقة إمكان تكرار مثل تلك الكوارث الطبيعية ما لم تتخذ إجراءات تقنية علمية لمعالجتها، وان الحلول الناجعة لذلك هي السيطرة على مشكلة الفيضانات عن طريق إنشاء السدود في مناطق مختلفة عند مجرى نهري دجلة والفرات وتوابعهما، وبذل الجهود المكثفة لاستصلاح الأراضي المتروكة وذلك عن طريق شق شبكات وقنوات الإرواء وإنشاء نواظم عليها، يصاحبها جنباً إلى جنب شبكات المبازل التي لولاها لتبقى مشكلة ملوحة التربة وتأثير المياه الجوفية في السهل الرسوبي، بشكل خاص، قائمة كما كانت في السابق، والتي كانت من أهم أسباب هجر المستوطنات القائمة وترك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية بورا ومهددةً بالتصحر.

٤. إن المسح الآثاري قد يؤدي إلى الكشف عن مميزات جغرافية غير محسوبة في السابق والوقوف على مظاهر حضارية جديدة ربما مختلفة المنشأ، أي قادمة من منطقة جغرافية – حضارة أخرى، وهذا ما حصل أثناء المسوحات الاثارية التي قام بها الباحث في منطقة الفرات الأوسط (منطقة سد حديثة) في عام ١٩٧٥، وما تبعه من أعمال مسح وتنقيب في المنطقة ذاتها من قبل آثاريين عراقيين وأجانب منذ عام ١٩٧٨ ولغاية ١٩٨٥. إن آمال المسح في منطقة السد قد أفرزت الكثير من التفصيلات المهمة والدلالات التاريخية الموثقة حول وجود علاقات سياسية واقتصادية وحضارية وصناعية وفنية، ربطت بين بلاد الرافدين ومناطق أخر في الشرق الأدنى، وفيما يأتي ندرج بعضاً منها:

أ. حصر مواقع الاستيطان عند مقتربات نهر الفرات ضمن شريط زراعي ضيق على جانبي النهر تحف بها اراض ذات طبيعة صحراوية وعرة تتخللها وديان كثيرة تتجه مصباتها نحو نهر الفرات. إن تقيد الاستيطان ضمن الشريط الزراعي قد فرض توالي السكن جيلاً بعد آخر مما عكس واقعاً صعباً عاشته منطقة الفرات الأوسط، هو إن الأراضي الصحراوية الواسعة التي تحف بذلك الشريط الزراعي غير مؤهلة طبيعياً للسكن الدائم أو أنها على الأقل تبقى عاجزة عن اكتساب الميزات الإنتاجية التي اتصف بها الشريط الزراعي المجاور للنهر. من هذا قد نخلص بأن إقامة مجمعات استيطانية– سياحية أو إنشاء مدن صغيرة عند مقتربات بحيرة سد حديثة ستكون معتمدة كلياً في اقتصادها على النقل الآلي للمياه الموظفة للزراعة، أو استخدام طريقة التقطير للسقي.أن استخدام طريقة السقي هذه تصب في خدمة الحياة اليومية للسكان القريبين هنا، وهذه بالطبع عملية مكلفة من الناحية الاقتصادية ولا يمكن تلافيها بسبب ارتفاع مستوى الأراضي المطلة على بحيرة السد. فضلاً عن عامل التكوين المورفولوجي للتربة كونها مكونة من صخور كلسية في الغالب، وعدم كفاية الأمطار في عموم منطقة الفرات الأوسط لإنماء المحاصيل الموسمية، إذ يقل معدل نسبة المطر هنا عن ٢٠٠ ميليمتراً سنوياً. لذلك فإن أي مشروع سياحي أو خدمي في المنطقة سيبقى مرهوناً بالسقي الاصطناعي والسحب الآلي للمياه.

ب. ان اغلب المواقع التاريخية المسجلة في حوض سد حديثة ذات صفة دفاعية عسكرية (أما القلاع وتحصينات عسكرية أو مواقع انتشار عسكري دون وجود مبان فيها)، وان القلاع والتحصينات العسكرية شيدت وفق نظم

ستراتيجية أستخدم النهر فيها مصدراً وحاجزاً امنياً، وأن اختيار مواضعها ينم عن دراية كافية بطبوغرافية الأرض. وقد أظهرت الحوادث التاريخية هنا تواجداً عسكرياً في العصرين البابلي القديم والبابلي الوسيط والى جانبهما العصر الأشوري الوسيط، وكانت هذه الأماكن مهمة للتدريبات العسكرية كي تكون على الدوام جاهزة للأعمال الحربية في حالات الدفاع والهجوم. أما المعسكرات المقامة خلال العصر الآشوري الحديث وكذلك مدة التواجد (الهلنستي/ اي الاغريقي– الروماني) في المنطقة فقد أظهرت تركزاً عسكرياً مكثفاً[٦]. وفي خلاصة لهذه النقطة فإن عموم المعسكرات آنفة الذكر قد أظهرت أهمية كبيرة في دراسة التاريخ العسكري لبلاد الرافدين في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وحتى العهد الروماني في أوائل الألف الأول قبل الميلاد.

ج. لعبت منطقة الفرات الأوسط دوراً مهماً كخط تجاري بين بلاد الرافدين والخليج والجزيرة العربية من جهة وبينها وبين مناطق شرقي البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى. فمنذ عصر فجر السلالات (الألف الثالث ق.م) أقيمت المحطات التجارية على هذا الطريق الحيوي ولم تتراجع أهميته عبر التاريخ حتى إنشاء طريق النقل البري الموصل بين العراق وبين بلاد الشام من قبل شركة نيرن أثناء الاحتلال البريطاني للعراق. يضاف إلى ذلك أن مجرى الفرات نفسه كان مستخدماً للنقل التجاري، وتشير المراجع التاريخية إلى انه استخدم لمرور السفن الحربية في العهد الروماني[٧] وعلى الرغم من انحسار الأهمية التجارية لهذه المنطقة من الفرات الأوسط جراء ابتعاد خطوط المواصلات البرية عن مجرى النهر، فإن إعادة الحياة لهذا الخط التجاري ممكنة جداً في حالة استغلال بحيرة السد لتربية الأسماك وإنشاء مراكز استيطان عند مقترباتها، فضلاً عن ذلك استثمار أراضي الجزيرة في تربية الإبل والماشية، وهذا في الواقع سيؤدي إلى تنشيط كبير لاقتصاد البلاد، خصوصاً مدن محافظة نينوى ومدينة حديثة وسكان مدينة راوه ومدينة القائم عند الحدود العراقية– السورية، وهي مدن تقع خارج بحيرة سد حديثة. فضلاً عن ذلك إمكان إنشاء قرى صغيرة على ضفاف البحيرة يمتهن سكانها صيد الأسماك وتصديرها، يعزز هذا الطرح غزارة الأسماك في هذه المنطقة من الفرات وإنها بالتأكيد كانت احد موارد العيش لسكان المواقع القديمة عند ضفاف النهر. المنهج في أعمال المسح الآثاري في العراق: لا نقصد بعملية المسح الآثاري هنا استخدام الأدوات والأجهزة الهندسية لعمل الخرائط الطبوغرافية ووضع مرتسمات للتلال والمواقع الأثرية ووضع الرسوم والمخططات للمباني المكتشفة جراء التنقيب في الطبقات الاستيطانية فقط، وإنما نعني دراسة مفهوم المسح الآثاري وضرورته وفوائده. ويعني المسح في مجال الآثار، دراسة كل ما يتعلق بحياة الإنسان في الأزمنة الماضية والمتمثلة ببقايا الاستيطان وعلاقة ذلك بالعوامل الطبيعية والبيئية المحيطة والمناخ السائد والسكان صانعو تاريخ أية منطقة حين تخضع للدراسة. فإلى جانب الأعمال الهندسية الحقلية، يقوم منهج العمل الميداني الذي أتبعته المدرسة العراقية لدراسة المسح الآثاري بمحاولة التوصل إلى حقائق تاريخية تدعم ما توفره الدراسات النوعية للمتبقيات الأثرية، التي ندعوها بالآثار (الثابتة والمتحركة) بما في ذلك النصوص الكتابية، خاصة في منطقة العثور، وعلى النحو الآتي:

١. دراسة تأريخ المواد الحضارية المنتشرة على سطوح المواقع الأثرية، وهذا يعد من أهم الأعمال التي يجب أن يقوم بها الآثاري في عملية المسح، وأن يكون له الماماً كافياً بأشكال وتقنيات صناعة المواد الحضارية وفق تسلسلها الزمني الذي اتفق عليه الآثاريون المنقبون، ونعني بالمواد الحضارية: جميع المخلفات الإنسانية التي تتضمنها المواقع الأثرية، خصوصاً الفخار. الذي يتوفر أكثر من غيره من المواد فوق سطوح المواقع الأثرية وفي بطونها، أي الطبقات الاستيطانية تحت السطح، الكافية لدى الآثاري في دراسة الفخار أولاً[٨]، ومعرفة تطور صناعته وتغير تقنياته عبر أزمنة محددة، ومن ثم القيام بالربط الحضاري بين صناعات وأشكال آنية عصر وآخر.

٢. فرز مجاميع النماذج الملتقطة من على سطوح المواقع الأثرية حسب توزيعها على السطح ودرجات كثافتها عليه.

٣. دراسة أشكال النماذج الملتقطة وتقناتها لغرض تحديد وظائفها والتعرف على هوية أماكن العثور عليها أو نقاط تركزها على سطح الموقع، فهي ترشد الآثاري إلى مبانٍ محددة الوظائف، كأن يكون هناك معبد قريب من سطح الموقع أو مبنى سكني أو مشغل أو فرن لحرق الفخار، وغير ذلك.

٤. عند إجراء المسح لسطح موقع اثري متعدد التلال يستلزم ذلك جمع النماذج من كل تل على حده في أكياس منفصلة، ويتوجب عمل الإجراء نفسه حتى ضمن التل الواحد للتعرف على متغيرات في نوعية اللقى الأثرية، ثم تربط بأكياس الملتقطات بطاقات للمعلومات.عند مسح المستوطن متعدد التلال يتطلب وضع مخطط توضيحي بسيط ً خارطة كروكي ً تبين تضاريس المستوطن ومعالمه الرئيسة الأخرى، مع إجراء دراسة وصفية لسطوح مجموع تلول المستوطن مع تحديد الأبعاد العامة لكل مرتفع. كل هذه الإجراءات تهدف إلى تاريخ المستوطن بالدرجة الأساس. وتحديد امتداد الاستيطان فيه، وبالتالي التوصل إلى حجم ذلك الاستيطان في كل مدة عاشها المستوطن

٥. من دراسة طبيعة منطقة المسح عموماً. فإن دراسة البيئة المحيطة بالمستوطن الخاضع للدراسة ستؤدي إلى تحديد مصادر العيش فيها (المياه والحيوان والنبات).

٦. لغرض الوقوف على أسباب اندثار المواقع الأثرية أو المستوطنات بصرف النظر عن حجمها، فإن الرجوع إلى السياق التاريخي إن أمكن، ذلك يقود إلى معرفة أهم الأحداث المدونة في الكتابات القديمة، كالأوبئة والفيضانات والحروب وقساوة المناخ وجفاف التربة، وغير ذلك من الكوارث، سواءً طبيعية أو بفعل الإنسان.

٧. تعد التغيرات المناخية في مناطق الاستيطان عاملاً مهماً في تركها والهجرة إلى أماكن أخر أكثر ملاءمة للعيش. وأن التعرف على التغيرات المناخية يتم من خلال دراسة ما هو متوفر فوق سطوح المواقع الأثرية وبواطنها من بقايا مواد عضوية، كالعظام والخشب والمواد المحروقة والرماد، وهي في العادة مواد موثوقة أكثر حين تكتشف في طبقات الاستيطان عند العثور عليها وتصنيفها من قبل متخصصين في علوم الحيوان والنبات ومقارنتها مع ما هو متوفر حالياً من هذه الأحياء في منطقة الدراسة ذاتها، ومن ثم الوقوف على حجم التغيرات المناخية والبيئية، ومن ثم تشخيص المتبقي والمنقرض من تلك الأحياء.

٨. ومن الأسباب الخطيرة التي أدت إلى موت الحضارات وهجر مواقع الاستيطان في الماضي هي مشكلة ملوحة التربة (السبخ) وامتداد التصحر إلى أماكن كانت مأهولة في السابق .

٩. لابد من توضيح حقيقة هامة هي أن المسح الآثاري يعد دراسة أولية وشمولية لمواضع الاستيطان القديمة، وانه ليس بديلا عن أعمال التنقيب الآثاري، بل يعتمد عليه في تأكيد أو تويب العديد من نتائج المسح، على سبيل المثال إن ما يتم العثور عليه من مواد حضارية ودلالات أثرية أخر فوق سطوح التلال الأثرية ليست بالضرورة تمثل جميع ما هو تحت السطح، اي طبقات الاستيطان من ادوار سكنية. فهي قد تمثل سكناً عابراً يظهر على السطح فقط، مثل مرور القوافل التجارية أو تمثل مرور قوافل للبدو عبر هذه المنطقة. وبالمثل، فان لقى أثرية ثقيلة ومعبرة قد لا تطفو على السطح لسبب أو أخر.

ثالثاً: التنقيبات الآثارية:

معروف لدى الآثاريين أن التنقيب هو عملية الحفر المنظم في المواقع الأثرية ضمن منهج علمي ممتع لدى المتخصصين في ميدان الآثار، ومعروف كذلك أن عملية التنقيب عادة بطيئة ومكلفة تتطلب العديد من الاختصاصات في ميداني العلوم الإنسانية والعلوم الصرفة وتتطلب الكثير من النفقات، خصوصاً أجور العمال

الماهرين والفنيين والعمال المحليين مع توفير الآليات وأدوات العمل والمعدات واللوازم الهندسية ولوازم أعمال الرسم الهندسي فضلاً عن ذلك أهمية العامل الزمني، إذ يستغرق التنقيب في المدن الأثرية الكبيرة، مثل بابل وآشور ونفر ونينوى والوركاء وغيرها من المدن المهمة سنوات عديدة ومواسم عمل متعاقبة.

وفي العقود الأخيرة من القرن المنصرم جاءت ظاهرة التنقيبات الإنقاذية التي رافقت في العادة مشاريع الإرواء في مقدمتها إنشاء السدود العملاقة ومشاريع الدولة لاستصلاح الأراضي الزراعية. مثل سد كيبان في جنوبي تركيا وسدود الموصل وحديثة وحمرين ومشاريع إحياء بابل وآشور ومشروع سد العظيم والمبزل الكبير في جنوب العراق ومشاريع أخرى هنا وهناك في عموم العراق [١٠].

يعني التنقيب بالكشف عن الطبقات والأدوار السكنية ومتابعة مراحل التطور الحضاري ضمن المدة الزمنية أو التاريخية الواحدة أو مدد متعاقبة مع دراسة الخصائص المميزة لآثار كل مدة زمنية وعلاقتها بنتاجات الفترات السابق لها والتالية كذلك. ينطبق هذا على عصور قبل التاريخ، أي قبل ظهور الكتابة التي بانت بوادرها في الطبقة الرابعة في الوركاء، إذ أرخت بحدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد. ففي مجال العلوم الإنسانية من الوثائق المهمة لدينا الكتابات المسمارية القديمة. وهي تحديداً نصوص اللغات السومرية والأكدية مع فرعيها، أي اللهجات البابلية والآشورية، فضلاً عن الكتابات المدونة باللهجات المحلية كالسريانية والآرامية والعربية القديمة والمندائية والعبرية، وهي في الواقع سواءً كانت لغات أو لهجات قد أخذت حيزاً كبيراً في كتابة تاريخ العراق كوثائق مدونة تناولت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق القديم، فضلاً عن تزوده النقود من معلومات تاريخية غاية في الأهمية. إلا أن الوثائق التاريخية كحقائق آثارية بدأت في الواقع قبل بدء الكتابة بزمن طويل وهي الأكثر غزارة وتنوعاً إذ يمكن للآثاري استخدامها مادة للتاريخ النسبي الذي يعتمد الأشكال والتنقيبات وأصل المواد التي استخدمت في صناعة القطع الأثرية وحين تضاف إليها المدونات فإنها مجتمعاً تشكل مادة للتاريخ في العراق القديم، وتؤدي إلى استكمال الصورة المشرقة لتاريخ العراق وحضارته.

إن الواقع العلمي يفرض على الآثاريين العراقيين الأخذ بالوثائق المدونة كونها مادة للتاريخ المطلق .وكذلك الأخذ بمبدأ دراسة المواد الحضارية أداة للتاريخ النسبي من خلال ما يتم الحصول عليه من مواد أثرية (حضارية) في أعمال المسح والتنقيب الآثاري، إن البيئة والتغيرات المناخية لعبت دوراً كبيراً في إتلاف الكثير من الوثائق المدونة، وهي الأصل بالطبع، من خلال تلف تلك الوثائق الممثلة بالمواد العضوية والنصوص التي تحملها، ناهيك عن تلف الكثير من الرقم الطينية بسبب تواتر الفيضانات وتسرب المياه الجوفية وملوحة التربة إلى السطح في السهل الرسوبي ببلاد الرافدين. من ناحية أخرى فان بلاد الرافدين نعمت منذ نهاية الألف الرابع قبل الميلاد بابتكارات دخلت في خدمة الحياة الإنسانية وحفزت كثيراً على الاستيطان وإقامة القرى الزراعية في عصور جرمو وحسونة والعبيد وغيرها. حتى إنشاء المدن التي ازدهرت وتطور البعض منها إلى عواصم ومراكز المدينة في المدد التاريخية كمدن نفر والوركاء وايسن ولارسا وبابل وآشور ونينوى وخرسبلد وكالح (نمرود) وغيرها العديد من المدن المهمة التي لعبت دوراً رئيساً في تدوين تاريخ العراق السياسي والحضاري.

شكلت دراسة العمارة والفنون بأنواعها مادة تاريخية غزيرة كثيراً ما ربطها العلماء بمدد زمنية محددة وعهود ملوك وحكام حددت تواريخ حكمهم، وكذلك الانجازات الحضارية مثل شق القنوات وإنشاء شبكات الإرواء الكثيرة المتفرعة عن نهري دجلة والفرات التي أحصتها قوائم التاريخ (Date formulas).

ومن المواد الحضارية التي وظفها الآثاريون العراقيون كمادة لكتابة التاريخ. هو الفخار وتطوره عبر المدد الزمنية سواءً قبل ظهور الكتابة أو بعدها وبما أن أشكال وتنقيبات صناعات الفخار قد تميزت بشكل دقيق وواضح وصار علماً

بحد ذاته فقد اتخذ علماء الآثار والانثروبولوجي من الفخار معياراً للمقارنة الصناعية والفنية في تاريخ الطبقات الاستيطانية المكتشفة أثناء التنقيب.

إن التنقيب الآثاري أفرز كذلك نصوصاً عرفت الباحثين بإبداعات الفكر العراقي والمعتقدات السائدة عن طريق القصص والأساطير والملاحم ومن طقوس الدفن والهدايا الدفينة التي أرختها المواد المرافقة لها[١١] ودلت الوثائق الكتابية المكتشفة على الكثير من النشاطات الاقتصادية الخاصة بالزراعة وتربية الماشية، والعقود التجارية والتعاملات المتبادلة بين التجار في المدن والممالك المختلفة، القريبة أو البعيدة، فالنصوص الخاصة بالتجارة بعيدة المسافات (Distanca Trade Long) تأخذنا إلى موضوعةً الصلات الحضاريةً بين البلدان والأمم على اختلاف ما يفصل بينها من مسافات؛ وتشمل تلك الصلات الكثير من المواد الحضارية وليس النصوص الكتابية، وهي جميعاً شكلت صفحات إضافية في كتابة التاريخ لبلاد الرافدين أما في مجال العلوم الصرفة فأن أعمال التنقيب قادت إلى دراسات علمية تؤصل اختراعات وابتكارات ظهرت لأول مرة هنا وهناك خصوصاً في بلاد الرافدين. ولابد من التذكير إن أعمال التنقيب هي الأساس في تقييم جميع اللقى الأثرية والعناصر العمارية والفنية المكتشفة في المباني أو طبقات الاستيطان وتؤخذ مقياساً للدراسة العلمية لدى العاملين بالمسح الآثاري. أما الكتابات واللقى الأثرية الأخرى فإنها تكتسب قيمة تاريخية أكبر حين يعثر عليها في المباني والطبقات وبالأخص الاستيطانية، ولاسيما حين يعثر عليها في مواضعها الأصلية وتحديداً داخل طبقات الاستيطان المستظهرة أثناء أعمال الحفر (in situ).

الهوامش

(1) Adams , Robert McC 1981

Heartland of Cities: Survey of Ancient Settlement and Land Use on the Central Plain of the Euphrates .Chicago: University of Chicago , 242-351

(2) Abdul- Amir, Sabah. j Archaeological Survey of Ancient Settlements and lrrigation Systems in the Middle Euphrates Region of Mesopotamia, (Unpublished ph. D .Dissertation), Chicago: University of Chicago, 1988

(٣) جعفر الساكني: ترجم البحث الى العربية بعنوان (الملح والطمىء في زراعة بلاد ما بين النهرين قديماً من قبل سيروب استيبايانان، ونشر في مجلة (النفط والتنمية) العدد ٧-٨، ١٩٨١، ص ١٤٢-١٥٥.

(4) Jacobsen, Thorkild nd Robert Mc. C Adams 'Salt and Silt on Ancient Mesopotamian Agricultur , in Society 128 - 125 -158

(٥) الشكري، صباح جاسم عبدالأمير، النشاط التجاري لبلاد مابين النهرين خلال العصر الآشوري القديم (أوائل الألف الثاني ق. م)، سومر، المجلد ٥٣، ج١.

(٦) المصدر السابق

Abdul -amir, sabah jasim Assyrian fromtier Sites on the Middle Euphrates: new evidence from Al-Haditha Dam region in thewestern Desert of iraq, in Heidelberger Studien zum Alten Orient

-Band6: Assyrien im . Wandel der Zeiten, Heidelberger Orient Verlag, 1997: 219 -221 (with 12 figures).

(7) Abdul –Amir, 1988 :6263

(8) Ibid: 456 – 599

(9) Jacobsen Thorkild and Robert Mc. C Adams in Society 128: 125 – 158.

(١٠) حول التنقيبات الإنقاذية الحديثة انظر:

Adams , Robert Ms C .1981 : 242 – 351

Wallon , Robert 1979

An Archaeological Survev of the Keban Reservoir Area of East–Central Turkev. Memoirs of the Museum of Anthrpology, no 11. Ann Arbor : University of Michigan .

Wilkinson, T, J.

Soil development and Early Use in the jazira Region, Upper Mesopotamia in world Archaeology, V. 22, NO, 1, 1990: 87– 103.

بحوث آثار حوض سد حديثة سومر، المجلد ٤٢، ج١- ٢ (عدد خاص) مطابع جامعة الموصل ١٩٨٦.

بحوث آثار حوض سد الموصل وبحوث أخرى، المؤسسة العامة للآثار مديرية دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ١٩٨٧.

(11) Abdul – Amir 1938 : 316 -334 ..